عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون
www.almadasupplements.com
رئيس مجلس الادارة
رئيس التحرير
فخري كريم
العدد (5400) السنة العشرون -
الخميس (30) آذار 2023

ابتسام عبد الله

1943 - 2023

ابتسام عبد اللّه..
مواهب في القصة والرواية والترجمة والحوار الثقافي

شكيب كاظم

وإذ تراجع الكتاب الاستقصائي التوثيقي المهم، الذي أغدقه علينا الباحث الجامعي، الدكتور عبد الإله أحمد(١٩٤٠-٢٠٠٧)، والموسوم بـ(نشأة القصة وتطورها في العراق ١٩٠٨-١٩٣٩)، تستوضحه عن البدايات، بداية من كتبن القصة القصيرة، بعد تأسيس العراق الحديث سنة ١٩٢١، فانك لتعثر على أسماء: روز فرنسيس، وسانين، وستيرينة إبراهيم، وسعدية سعيد يحيى، وفكتوريا نعمان، – أرجو الوقوف عند أسمائهن ودلالاتها الدينية- وكلهن كتبن قصصهن في سنوات الثلاثين من القرن العشرين، حتى إذا واصل العراق الأخذ بأسباب التحضر والتقدم، ظهر جيل من كاتبات القصة منهن: سافرة جميل حافظ، ويأتي جيل آخر تمثل بديزي الأمير، وسميرة المانع، وسهيلة داود سلمان، وبديعة أمين، وناصرة السعدون، وجيل أحدث، لطفية الدليمي، وبثينة الناصري، وميسلون هادي، وهدية حسين، وعالية طالب، وإلهام عبد الكريم، وذكرى محمد نادر، وإرادة الجبوري، وإيناس البدران، وما دمت بصدد الإحصاء والتعداد، فلا بد أن تكون وقفتنا طويلة عند القاصة والروائية والمترجمة والإعلامية، ابتسام عبد الله، التي كانت تفيدنا وتمتعنا بإدارتها حوارات جادة وذكية من خلال برنامجها التلفازي الجميل (سيرة وذكريات)، وما زال في تلافيف الذاكرة، لقاؤها مع الجراح النطاسي الحاذق، صائب شوكة ومع فيروز ونزار القباني والقائمة تطول.

قلة هم الذين يحذقون فن الحوار والسجال، وقلة هن! وهنا أود الإشارة إلى والتنويه بالأستاذ ماجد (صالح) السامرائي، ومن مصر يسحرني حوار الشاعر فاروق شوشة، الذي كان يقدمه من القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية b.b.c تحت عنوان (لقاء مع..) كانوا يضيفون لمحاورتهم نكهة وحيوية ناتجة عن ثقافة واسعة ولباقة ونباهة وحسن إدارة.

كتبت ابتسام عبدالله الرواية، ولها في هذا اللون روايتها (فجر نهار وحشي) تسرد علينا فيها الحوادث التي عصفت بمدينة الموصل، يوم الثامن من آذار ١٩٥٩ والأيام التي تلته، وإذا كانت هذه رواية سياسية، فإنها قدمت لنا رواية عاطفية عنوانها (ممر إلى الليل) وفيها تتناول عينات من حياة (أدهم زين الدين) مريض القلب، الذي يحيا حياة تعاني فراغاً ممضاً، على الرغم من البيت الفاره، والحديقة الأنيقة، والوظيفة، وإذ يتحرك قلبه إزاء إحدى الموظفات بغية الارتباط بها زوجة فـ "أدهم زين الدين لم تعد له في الحياة من وجهة أو رغبة غير(رشا)، وهي بإمكانها انتشاله من حالته القلقة، وهي التي تمنحه دافعا للحركة والإبداع". ص١١١٨

وإذ لم يستطع البوح لها بحبه، حتى وهو يطلب منها اللقاء في مطعم بعد نهاية دوامهما، هو الذي يؤكد لها:

– إنها قضية خاصة. إني في حاجة إليك"ص١٢٠

فالعبارات التي أعدها مسبقا تبخرت من ذهنه، فأضحى فشله في البوح بمكنونات قلبه سبباً في انهيار صحته والتبكير بموته، عاد إلى منزله مخذولاً، يقطع بخطواته البطيئة الممر الضيق المعتم (..) يحاول بحركاته البطيئة أن يغير ملابسه، يدفع حذاءه بعيدا عنه، يحس بتعب ووهن شديدين، يستلقي على الفراش بكامل ملابسه ويغيب عن وعيه.." ص ١٢٦

كما كتبت ابتسام عبدالله القصة القصيرة، وقد جمعت بعضاً من قصصها في مجموعتها (بخور) التي طبعتها دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد سنة ١٩٩٨، ولعل من أروع قصص هذه المجموعة، رائعتها (يوم خريفي) التي نشرتها أولاً في الصفحة الثقافية لجريدة (الثورة) في ١٣من نيسان ١٩٩٥، يوم كان يشرف على تحرير الصفحة الشاعر الأنيق جواد الحطاب، قرأت هذه القصة الرائعة، وأدرت عنها حديثاً نقدياً نشرته الصفحة ذاتها في ١٦من حزيران ١٩٩٥، وتقوم هذه القصة الجميلة على مفارقة مؤسية، أو ما تعرف نقديا بـ(بنية التضاد)، فإذ تسافر الشابة بطلة القصة، التي لم تطلق ابتسام عبدالله عليها اسماً، تسافر نحو بيروت، بعد انقطاع سنوات طويلة عنها، ولعل القاصة تومىء إلى سنوات حرب الثمانين، ومنع سفر العراقيين، كي يذهبوا إلى الحرب، وإذ تنزل في الفندق ذاته الذي نزلت به أول مرة، الكائن في شارع الحمرا، الذي يتأخر في الاستيقاظ، لأنه يتأخر في النوم، فلا وقت للنوم في بيروت تلك السنين الضاجة بالحياة، تعود بها الذاكرة إلى أيام خلت ومضت، يوم تعرفت على صديقها (هاني) وللاسم رمزيته وموحياته، كانت تجلس وإياه في مقهى (الهورس شو) وتظل ابتسام عبد الله تدير قصتها الجميلة هذه، مستخدمة تيار الوعي، والاسترجاع فالمطر المنهمر هذا اليوم مدرارا يذكرها بمطر ذلك اليوم، الذي كانا يزمعان فيه المشاركة في سفرة نظمتها الكلية نحو بعلبك، وإذ تقرر مغادرة الفندق نحو مقهى (الهورس شو) وإذ تهم بتسليم مفتاح غرفتها لموظف مكتب الاستقبال، وإذ لا تجد أحداً، فإنها تشغل نفسها بقراءة أسماء النزلاء، وهنا تفصح ابتسام عبد الله عن إمكاناتها الفياضة في القص، فيتصاعد الحدث ويتوتر، إذ يفجؤها اسم بعينه، يا لله أية مفاجأة هذه؟! إنه هاني، هاني إبراهيم الفرحان، ولأمر ما شاءت ابتسام عبد الله أن تغير اسمه لدى إعادة نشر ها القصة في مجموعتها (بخور)، غيرته إلى أسامة إبراهيم الفرحان.

أية مصادفة محببة هذه التي جمعتها وإياه؟!هنا يحضر موظف الاستعلامات، ليخبرها بوجود رسالة إليها، وإذ كانت في عجلة من أمرها تمني النفس بلقاء (هاني) وإذ يبحث الموظف عن رسالتها فلا يعثر عليها، لكثرة الرسائل، تهون عليه الأمر بأنها ستتسلمها لدى عودتها ظهرا، هنا المفارقة، وثمة الفن، والإمكانات الباهرة التي تلتقط هذه المفارقة لتوظفها في تصاعد الفعل الدرامي لعملها القصصي الباذخ الثراء الفني، هذا الالتقاط المحسوب بدقة.

تغادر الفندق نحو المقهى، على أمل اللقاء بهاني، وتمضي ساعات الصباح بطيئة، وصوت السيدة فيروز في تلك الساعة يشدو بأغنيتها (سني عن سني) كانت قد أخذت تسحبها من دائرة التفكير الذي كانت غارقة فيه، مدت يدها إلى قهوتها الثانية التي بردت، للإشارة إلى طول وقت الانتظار، وتركز ذهنها على أمل اللقاء بـ(هاني)، وإذ طال المدى، بدأ اليأس يتسرب إلى حنايا الروح وئيداً وئيداً، فما عاد ثمة أمل في اللقاء.

تغادر المقهى نحو فندقها لتصل إليه عند الثانية عشرة والنصف من بعد الظهر، وأرجوا أن ننتبه إلى الوقت، فابتسام عبد الله تحسب الأمر وبدقة، من أجل فنية القصة وتوترها الدرامي.

في الثانية عشرة والنصف تعود لفندقها، فيسلمها موظف الاستعلامات الرسالة التي حدثها عنها صباحا، وتظل تناجي نفسها، لماذا لم يحضر للفندق؟ هل تتصل به في غرفته؟ ترى أتنتظر حتى العصر؟ هل هو في الفندق الآن أم لا؟ أه يا ربي ما هذه الكوابيس المزعجة؟

في الساعة الثانية، وهنا أؤكد موضوعة الوقت ثانية، قررت الاتصال به هاتفيا، ولا من مجيب، لقد نسجت ابتسام عبد الله خيوط قصتها الرائعة هذه بدقة، وحوادثها تتسارع وتتصاعد، وصولا إلى ذروة الحدث القصصي.

هنا تقع عيناها على الحقيبة، وتلتقط الرسالة، رسالة هاني، لتقرأ ويا لهول ما تقرأ: عزيزتي. وصلت بيروت قبل ثلاثة أيام (..) لا بد أن نلتقي يوم غد صباحاً، قبل سفري، فالطائرة التي حجزت عليها ستغادر بيروت في الواحدة والنصف.سأكون في انتظارك في صالة الفندق، من الساعة التاسعة وحتى الثانية عشرة.

كان المطر ينهمر بقسوة مخيفة، وكنا نحن القراء نكتم أنفاسنا بألم ممض وقسوة مخيفة

ذكريات عن إبتسام عبد الله

نهاد عبد الستار رشيد

عندما كانت تقدم برنامجها الشيّق "سيرة وذكريات" وتستضيف إحدى الشخصيات الثقافية، وتحاورها عن أهم منجزاتها وأبرز التحولات التي طرأت في حياتها الثقافية، التقيت بها مرات عدة، وأظهرت لها مدى اعجابي ببرنامجها التلفزيوني وأبديت بعض ملاحظاتي.

كانت شابة أنيقة المظهر، وفي منتهى الجاذبية، تترك شعر ناصيتها منسدلاً على جبينها الناصع البياض، لها ملامح تثير في النفس الراحة والثقة والطمأنينة. قبل أن تستضيف شخصيتها، تدرسها بعمق، فنجدها تشارك الضيف في إلقاء الأضواء على بعض المواضع المبهمة في سيرته الثقافية. وكم كان بودي حضور نخبة معينة من المهتمين اثناء اللقاء لإبداء ملاحظاتهم وتعليقاتهم.

كانت الروائية البارزة ابتسام عبد الله غزيرة الإنتاج، فقد أصدرت أربع روايات، ومجموعة قصصية قصيرة، وترجمت الكثير من الأعمال الأدبية والفنية الأجنبية الى اللغة العربية.

صدرت لها قصة سنة ١٩٨٤ بعنوان (فجر نهار وحشي)، دارت أحداثها عن الحركة المسلحة التي قادها العقيد الركن عبد الوهاب الشواف للإطاحة بنظام الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، وما تبعتها من احداث مؤلمة. وقد وثقت الروائية ابتسام عبد الله بعملها هذا تأريخ الموصل الحديث. بعد عامين من صدور هذه الرواية صدرت لها رواية جديدة بعنوان (ممر الى الليل)، ثم أعقبتها رواية (مطر أسود... مطر أحمر)، أما مجموعتها القصصية فقد حملت عنوان (بخور)، كما أن للروائية مجموعة قصصية جاهزة للنشر بعنوان (الليل والبستان)، وقد تم ترجمة العديد من قصصها الى اللغتين الأنكليزية والفرنسية، بالإضافة لذلك فقد ساهمت في اغناء المكتبة العربية بالعديد من ترجماتها لأبرز الكتّاب العالميين.

آخر رواية لها صدرت عام ٢٠٠٢ تحت عنوان "ميسوبوتاميا" (بين النهرين). كانت صورة شبح الاحتلال الزاحف على العراق شاخصة في ذهنها، وتصورت ما سيحل بالآثار العراقية من سلب ونهب ودمار. وقد تحققت تنبؤاتها، بل اصبح الواقع أكثر سوءاً بعد الاحتلال، حيث تم تهريب العديد من القطع الآثارية العراقية المهمة وأتلف بعضها. تقول الروائية ابتسام عبد الله عن روايتها الأخيرة (بين النهرين): "عندما كتبتها كانت فكرة الاحتلال القادم متجسدة أمامي صورة ثابتة، علماً أني أنجزتها في أواخر عام ٢٠٠١، لقد اخترت قصداً كلمة "ميسوبوتاميا"، اسم لمحل بيع الأنتيكات والتحف، وهي تعني بالنسبة لي، الأسم الذي أطلقه الآخرون على العراق، وكأني بذلك أعيد ذلك الأسم الى الحياة والذاكرة، دلالة على الحدث القادم. ورواية "ميسوبوتاميا" تترجم الآن الى اللغة الإنكليزية بعد اتفاقي مع الجامعة الأميركية في القاهرة على ذلك."

الثيمة الرئيسة في الرواية كانت عن الحصار الاقتصادي المفروض على العراق وما ترتب عليه من آثار سلبية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والنفسية. وتصدرت الرواية عبارة مقتبسة من ملحمة كلكامش. إلا أنه لم يسمح لهذه الرواية الرائعة بالنشر بعد احتلال العراق.

من ناحية ثانية، في وقت مبكر من عام ١٩٨٠، فاتحتني وزارة الثقافة والإعلام بكتاب موجه لي بأنها تنوي اصدار مجلة بعنوان "الثقافة الأجنبية" وطلبت مني أن أرفدها بما استجد من الأدب الحديث والفنون المعاصرة في مختلف بقاع العالم، فلبيت طلبها وبذلت قصارى جهدي في المشاركة بمحاورها المختلفة وتزويدها بمختلف الدراسات، واطلاع القارئ العربي على شتى التيارات الأدبية والفنية المعاصرة.

في عام ٢٠٠١، ارتأت وزارة الثقافة والإعلام في العراق تعيين الروائية العراقية ابتسام عبد الله، رئيسة تحرير مجلة "الثقافة الأجنبية"، فكنت من السباقين في تهنئتها في منصبها الجديد، وأبديت ملاحظاتي في المجلة، وقدمت لها دراسة وافية شملت أبواب المجلة ومحاورها، والإخراج الفني لها. وزودت المجلة بباج رسمته ليمثل دور المجلة الثقافي على المستويين العربي والعالمي، وسرعان ما تم اعتماد الباج رسمياً في جميع اعداد المجلة. قالت السيدة ابتسام، وكان ثغرها يضيء ببسمة فاتنة: "شكراً جزيلاً على جهودك المخلصة تجاه المجلة، وأتمنى أن تنقل تجاربك الطويلة في الصحافة الأجنبية لهذه المجلة."

كانت كلماتها عذبة، ولطيفة، وتفصح عن ود ومحبة للناس. ثم طفقنا نخوض في شتى المواضيع التي تخص المجلة. وأنفقنا في مثل هذا الحديث ساعة تقضت على نحو خاطف، ثم استأذنت منها، ومضيت في سبيلي.

بعد أن تم منح الأدباء والفنانين والصحفيين، في عهد النظام السابق، رواتب شهرية دعماً لجهودهم الإبداعية، لم يتم ادراج اسمي ضمن قائمة الرواتب لأدباء فرع بابل، الذي أنتمي إليه، لأسباب أجهلها، فأحسست بالظلم والمهانة.

استبدت بي موجة عارمة من موجات الحزن، وكنت أتالم في اباء وشمم وفي كثير من الصمت والهدوء. وسرعان ما أصبح ذلك موضوعاً تتداوله الألسن أينما ذهبت. كانت الصدمة أعنف من أن تطاق، وضاقت الدنيا على رحبها في عيني، وأصبحت كثير الأنطواء على نفسي. لم يحدث قط في حياتي أنني تألمت كما أتألم الآن مما ساورني من شكوك جعلت ثقتي في أصدقائي وزملائي تنهار دفعة واحدة. إن هذا الموقف يحط من قدري ويسهم في إذلالي. وإزداد هذا الحزن رويداً رويداً حتى أصبح قاسياً لا يحتمل. الا أن الفم يؤثر الصمت عن كثير مما يخالج النفس، وكنت قد وطنت العزم على الاصطبار.

كانت الأيام تمر بطيئة قاسية، وبرغم ذلك، كان هناك أمل يومض في قرارة نفسي، وكنت آمل أن شيئاً ما سيقلب موازين الأمور، ويصادفني حظ غير مرتقب.

في ذات مساء، ترامى الى اذني نداء صديق يأتيني من الجانب الآخر للطريق. التفت باتجاه مصدر الصوت، وإذا به زميلي الدكتور صباح المرزوق. ترجل من عربته، وراح يبلغني بضرورة مراجعة محاسبة مجمع آفاق في بغداد لتسلم راتب الأدباء...ها قد ومضت بارقة أمل في الأفق. أنزلت هذه الكلمات في نفسي السكينة... وانسرى همي، وانفرجت أساريري في الحال، وشعرت انني اتحرر من وطأة ذلك اليأس، وأن الحياة قد بدأت تبتسم لي من جديد، وأصبحت ثقتي بالمستقبل تزداد، وبدأت مرحلة من اعادة ثقتي بالآخرين تتنامى، فرحت أعدو مع الريح، وكنت في مشيتي كأنني لا أكاد أطأ الأرض تيهاً وزهواً.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي كنت قد وصلت مجمع آفاق، وتسلمت راتبي. وعند خروجي من مكتب المحاسبة التقى بي الأستاذ كاظم سعد الدين وابلغني أن السيدة ابتسام عبد الله قامت بإدراج اسمي ضمن أسرة تحرير مجلة الثقافة الأجنبية. استشعرت حافزاً قوياً يدعوني الى وجوب تقديم شكري وامتناني للسيدة ابتسام على موقفها هذا، فذهبت إليها من دون إبطاء.

ألفيتها جالسة في مكتبها، انسانة نبيلة، ورقيقة، وحسنة الملامح. تبدو على وجهها سيماء اللطف والذكاء، فقلت لها بلهجة صادقة:

"– شكراً أم خالد على درج اسمي ضمن أسرة تحرير المجلة."

فأجابت بصوت بدا فيه الحزم والرزانة والهدوء:

"– هذا حقك أستاذ نهاد، بل أنت تستحق اكثر من ذلك. لقد عملت بجهد استثنائي لرفد المجلة بما تجده مفيداً من الآداب الأجنبية الحديثة والفنون المعاصرة. كما أنك دائماً تفكر أن الغد يحمل المفاجأة".

فقلت لها بلهجة اعتزاز وقد فاض صدري بعرفان الجميل:

"– إن جل ما اصبو إليه هو أن أحظى بثقتك."

بعد أن تناولنا الشاي، غادرت مكتبها. وقلت في نفسي متعجباً:

"– ما أكثر المزايا الفائقة، والخصال الرفيعة التي اكتشفها في هذه المرأة الرائعة."

من أعمال الروائية ابتسام عبد الله المترجمة الى اللغة الإنكليزية قصة "في البستان"، قام بترجمتها دنيس جونسون ديفيز سنة ١٩٩٠، وتدور أحداثها عن آثار الحصار الأقتصادي على المجتمع العراقي وبخاصة الطبقة الفقيرة، والمحت عن نشوء طبقة جديدة من الأغنياء المنتفعين من ظروف الحصار، وقصة "دار الحضانة" نشرت في (بانيبال) سنة ٢٠٠٣، وقصة "في الحديقة" التي صدرت في الأهرام الأسبوعي سنة ١٩٩٨ وهي من ترجمة دنيس جونسون ديفيز، والرواية الخيالية العراقية المعاصرة: وهي مقتطفات أدبية مختارة صدرت سنة ٢٠٠٨، وترجمت السيدة ابتسام العديد من الأعمال الأدبية العالمية الى اللغة العربية كان من ضمنها: رواية "في انتظار البرابرة" لمؤلفه جون ماكسويل كويتزي، الروائي الشهير المولود سنة ١٩٤٠ في كيب تاون (جنوب افريقيا) والحاصل على جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٣، وكان قد فاز مرتين بجائزة بوكر الأدبية البريطانية الراقية، ويقوم حالياً بالتدريس في جامعة شيكاغو. كما ترجمت الى العربية "مذكرات ميكيس ثيودور اكيس"، الموسيقار والسياسي اليوناني المشهور الذي ارتبط اسمه عند كثير من الناس بموسيقى فيلم (زوربا اليوناني). وقد عرف عنه مناصرته لقضايا حقوق الإنسان ويعتبر من ابرز الشخصيات العالمية المؤيدة للقضية الفلسطينية. وترجمت السيرة الذاتية لـ (أنجيلا ديفز)، الناشطة السياسية الأميركية التي بلغت قمة نشاطها في نهاية الستينيات امتداداً الى السبعينيات من القرن العشرين. عضويتها في الحزب الشيوعي قادت الى طلب رونالد ريغن في سنة ١٩٦٩ لمنعها من التدريس في أية جامعة في ولاية كاليفورنيا. السيرة الذاتية لأنجيلا ديفز صدرت سنة ١٩٧٤، تخبرنا بقصة أول (٢٨) سنة من حياتها، منذ ولادتها حتى إلقاء القبض عليها وسجنها ومحاكمتها.

قراءة في قصص إبتسام عبد الله

ناطق خلوصي

يبلغ عمر السرد النسوي في العراق نصف قرن بعد، وما زال عدد كاتباته محدوداً إذا ما قِيس بعدد الكتّاب، وظل حجم ما كُتب أو يُكتب عنه محدوداً هو الآخر. ويمكن القول إن البدايات الحقيقية لهذا السرد تعود الى أواخر ستينات القرن الماضي أو الى أوائل سبعينياته، حيث ظهرت أسماء ابتسام عبد الله ولطفية الدليمي وعالية ممدوح ومي مظفر وسميرة المانع وبديعة أمين وسالمة صالح وسافرة جميل حاقظ وديزي الأمير وسهيلة داود سلمان،لتظهر بعدها أسماء ميسلون هادي وإلهام عبد الكريم وهدية حسين وبتول الخضيري وبثينة الناصري وانعام كجة جي وعالية طالب وإرادة الجبوري وذكرى محمد نادر، ونعيمة مجيد، وصولاً الى أسماء كليزار أنور وايناس البدران وكاتبات قصة أخريات ظهرن خلال السنوات الأخيرة.

إن خصائص هذا السرد ترتبط بخصوصية الوضع الاجتماعي والنفسي للمرأة بشكل عام والقاصة بشكل خاص، فضلاً عن طبيعة الظروف الموضوعية المحيطة بها، وهي خصوصية تملي على القاصة ضرورة الحذر في التقاط الأحداث واختيار نماذج الشخصيات وطبيعة التناول لأن ما يُسمح للقاص بأن يتناوله في هذا المجال، قد لا يكون مسموحاً للقاصة أن تفعله، لاسيما أنها تواجه تابوات الممنوع والمحرّم في تناول ما يمكن أن يعد خروجاً عن المعايير الأخلاقية والاجتماعية التي تحكم المجتمعات المحافظة. فموضوعة الجنس ظلت تدخل في إطار المحظورات حتى بالنسبة للقاص العراقي قبل أن ينفلت ذو النون أيوب وفؤاد التكرلي ومهدي عيسى الصقر ثم نجم والي من هذا الإطار بفعل عوامل ذاتية وموضوعية ساعدتهم في ذلك، وبالتالي ظلت هذه الموضوعة داخل إطار المحرمات والمحظورات بالنسبة للقاصة العراقية، ومثلها ظلت موضوعة الدين التي لا يقترب منها حتى القاص العراقي إلا بحذر شديد بخلاف موضوعة السياسة التي قد يسرف القاص في تناولها في حين تظل القاصة على تماس سطحي معها أحياناً. أما الحرب، وهي مهنة الرجل بشكل خاص، فقد ظلت محور اهتمام القاص العراقي على امتداد بضعة عقود من السنين بفعل عمق تجربته فيها بسبب انغماره فيها مقاتلاً أو مراسلاً حربياً أو شاهداً عيانياً خلال زياراته لجبهات القتال، في حين ظل تناول القاصة لهذه الموضوعة محدوداً ويتم بالتعامل مع انعكاساتها الاجتماعية والنفسية بشكل خاص. لقد أوردت "ببلوغرافيا قصة الحرب: ١٩٨١ ــ ١٩٨٨" التي اصدرتها دار الشؤون الثقافية العامة لتوثيق ما صدر من أعمال سردية عن الحرب العراقية ـ الإيرانية، عناوين أكثر من مئة وسبعين مجموعة قصصية ورواية كان من بينها مجموعتان قصصيتان ورواية واحدة فقط لقاصتين عراقيتين. إن عالم المرأة القاصة الفسيح ينفتح على حزمة من هموم وهواجس ومشاغل وارهاصات ومشاعر خاصة بها لا يمتلك غيرها القدرة على اختراقها إبداعياً للتعبير عنها بالشكل الذي يغطي اشكالياتها المختلفة وبما تمليه أحاسيسها الداخلية بخلاف ما يفعله القاص الذي يتعامل معها من الخارج عند تناوله لها، فيتجلى في ذلك الفارق في مستوى الصدق في التعبير عنها بينهما. وثمة عناصر تسهم في صقل تجربة القاصة وتتمثل في مستوى ثقافتها وحجم اطلاعها على المنجز السردي العربي والعالمي الى جانب اتقان لغة اجنبية واحدة أو أكثر من لغة. ويتضح تأثير هذه العناصر من خلال الفوارق بين قاصة وأخرى في اسلوب التناول ولغة السرد. ويبدو أن الانتظار، انتظار الغائب أباً أو أبناً أو أخاً أو حبيباً، صار مهنة المرأة العراقية بامتياز حيث ظل هاجساً يلاحقها وهي تعيش سنوات الحروب والحصار والانكسارات، ويبدو ذلك واضحاً في كل النماذج التي اخترناها هنا.

بخور: ابتسام عبد الله

صدرت هذه المجموعة في العام ١٩٩٨ (وكنا قد تناولناها عند صدورها) وتقع في اثنتي عشرة قصة قصيرة مفعمة بالحسّ الإنساني وحميمية الارتباط بواقع المرأة والهموم التي يفرزها هذا الواقع، يتمازج فيها نشيد التوق الانساني للانعتاق من أسر الألم، مع نشيج الأحزان ومرارة الإحباط والاحساس بالانكسار الداخلي، إذ تبدو احدى عشرة قصة منها كأنها متوالية قصصية ينتظمها خيط روحي واحد ويشدها نسيج متجانس تقريباً وتشغل الحيّز السردي في كل منها شخصيتان: امرأة ورجل، هذه الثنائية الأزلية التي رافقت الوجود الانساني منذ بدئه. إن المرأة في قصص ابتسام عبد الله لا تعاني من اضطهاد الرجل أو تقع تحت سطوته الصارمة. إنها على العموم مثقفة تمتلك حريتها الشخصية لكنها تعاني من قهر الظروف المحيطة بها، وهي ظروف خارجة على ارادتها، لذلك تبدو حياتها الأسرية قلقة، مضطربة، لا تعرف الاستقرار. ويحلّق هاجس القلق في فضاءات القصص، ويشكل الانتظار هاجساً يؤرق المرأة، لاسيما حين يكون مصحوباً بالخوف أو القلق، فتلوذ بالصمت الثقيل والعزلة تبعاً لذلك، وهذه ثيمات تقع في مجرى التداول القصصي عند القاصة. تتعرض القاصة في خمس من قصص المجموعة الى موضوعة الحرب، ولكن ليس ببعدها القتالي أو التعبير عنها من خلال الخطابية والمباشرة. فهي تتعرض للحرب ببعدها الإنساني والمأساوي بجرأة هي امتداد للجرأة التي تتعامل بها مع علاقة المرأة بالرجل، إذ تدرك أن قصة ما بعد الحرب تستلزم نسق تعبير مختلفاً، ناشئاً عن رؤية خاصة تقوم على المزاوجة المتوازنة بين ما هو عقلي وما هو عاطفي مثلما تستلزم اسلوباً يتوافر على القدرة على الاقناع وينأى بالقصة عن فجاجة المباشرة وسطحيتها. لكن قصتها "جداول الصمت" نبدو كأنها تنفلت لوحدها عن سياق المجموعة أحداثاً وشخوصاً، فهي تقحم القارئ في لجة الواقع المأساوي منذ مفتتح القصة حيث يرى "أربعة صناديق خشبية طويلة ورفيعة، مصفوفة الواحد جنب الآخر تنتظر منذ أيام أن يأتي من يتعرف على أجساد أربعة بداخلها، من يتطلع اليها بمحبة، من يحتضنها بحنو ليدفنها فيما بعد في حفرة من الأرض". أما قصة "في المرآة" فهي واحدة من أجمل قصص الحرب. إنها تنطوي على استقراء لمفردات أجواء الحرب وانعكاساتها على الوضع النفسي ومظاهر هذه الانعكاسات في التركيبة الداخلية / الخارجية لشخصيتي القصة. فعلى الرغم من أن المرأة في هذه القصة ليست على تماس جسدي مباشر مع الحرب كفعل قتالي إلا أنها تظل على تماس روحي معها وهو تماس له وطأته الثقيلة عليها: "عرفت مع مر الأيام كيف أمضي الوقت بل أقتله بالصمت. إنها حرفة تمرستُ بها منذ ذهابه الى الحرب أو سوقه إليها".

عاشقة الورق

زهير الجبوري

لَمْ تَكُنِ الأستاذة الراحلة ابتسام عبد الله مجرد أديبة أو إعلامية عراقية حسب، إنما تعدُّ من أهمّ الأسماء النسائية، التي حققت حضوراً ثقافياً وفكرياً في سنوات كانت فيها الثقافة العراقية تعيش نشوتها، فهي علامة فارقة وبارزة من بين قريناتها، واستطاعت أن تصبح المثقفة المتفردة، التي تحاور الأسماء الثقافية في برنامج خاص بها (سيرة وذكريات) في مرحلة العقد السبعيني، وعلى الرغم من اشتغالها في مجال الترجمة وامتلاكها لغة اخرى، فقد أفادت لنفسها الاطلاع على ثقافة أخرى، ما مهد لها أن تكون مُحاورَة ممتلئة في معلومتها، بل كانت تطرح العديد من الأسئلة التي تُنبأ عن وجود فكر له مرجعيات معرفية منضبطة، فضلاً عن كونها تحمل (كاريزما) الشكل وطريقة الكلام و(اتكيت) الحوار والحديث في الميدان المعرفي، وفي تلك الفترة كان لها التأثير المباشر لدى المتلقي، فمن خلال مناقشاتها يشعر الآخر أنّه يتصفح كتابا معرفيا، وربما قبولها الشخصي ترتب عليها هذا الحضور، واستطاع أن يشكل عندها نقطة الإبداع في تلك الفترة التي توصف بالذهبية.

إبتسام عبد الله، عاشقة الورق، وصديقة القلم، وملهمة الفكر، وهذا ما جعلها واحدة من الأسماء المعروفة في العمل الصحفي منذ عملها في صحيفة الجمهورية، مرورا بمجلة (ألف باء) و(الثقافة الأجنبية)، منذ عقود الى فترة اشتغالها في صحيفة المدى العراقية، فضلاً عن الإذاعة والتلفزيون وغيرها من محطات العمل الإعلامي، وكانت الخطوة المهمة في مسيرتها الترجمية ايضا، حيث تنطوي في ترجمتها لمذكرات المناضلة الأميركية (انجيلا ديفس) على قدر كبير من الحرفة، ربما لأنها تنطلق من الحماس الأيديولوجي، الذي أعجبها في هذه المناضلة، ما أعطى الفسحة الكبيرة لهذا الاشتغال الحساس، وكذلك ترجمة مذكرات (ميكسيس ثيودور أكيس)، وجلّ ما تنحاز إليه يأتي في إطار في الموضوعات النسوية والسياسية والاجتماعية.

أما ما قدمته الراحلة القديرة في مجال إبداعها الأدبي، انحسر في ميدان السرد الروائي والقصصي، ومهما كانت الموضوعات التي كتبتها وما انطوت عليه من أهمية، إلّا أن اشتغالها في ميدان الإعلام المرئي والورقي أثر الى حد كبير في هذا الموضوع، لتتقاسم شخصيتها الأبداعية في معادل موضوعي للطرفين، ومع كل ذلك وبرغم كتابتها للرواية ودخولها لعالم الأدب، عن طريق هذا اللّون من الكتابة (بحسب علمي)، إلّا أنها أحسّت إحساسا موجعا لمرحلة العقد التسعيني، حين أدركت انعكاس الحصار وحياته الموجعة، هو بحد ذاته مسألة كبيرة تستوجب الوقوف عنده وجعلها قضية (سوسيو ثقافية)، لا بدَّ من الدخول في طياته والاشتغال عليه في الكتابة، فكانت القصص التي كتبتها تمثل جزءاً من هذه المرحلة، على الرغم من واقعياتها ومضمونها التعبوي، منها المجموعة (مطر أسود) على وجه التحديد، وكذلك روايتها (بلاد ما بين النهرين)، وغيرها من الإصدارات..

كانت لي مع المبدعة القديرة الراحلة ابتسام عبد الله لقاءات سريعة، عندما كنت أزور صحيفة المدى التي عملت فيها لسنوات، كانت أناقة حديثها وملبسها وطبيعة سلوكها الهادئ يكشف عن أنها كائن صنعته الثقافة الحقيقية، حتى عندما طلبت منها أن تهدي لي آخر إصدار لها ابتسمت وقالت هذا يسعدني أنت جيل من الأدباء الشباب المواظبين على ملاحقة الإبداع، رغم قسوة الحياة العراقية، رحم الله هذه المبدعة، فهي امتدادٌ لأسماء عراقية نسائية كبيرة تربينا على متابعتها كنازك الملائكة ولميعة عباس عمارة ولطفية الدليمي، وغيرهن.

إبتسام عبد الله إنزوت قبل رحيلها

كاظم حسن سعيد

اعلن اليوم عن وفاة الروائية والمترجمة ومقدمة البرامج ابتسام عبد الله الدباغ عن عمر يناهز ٨٠ عاما ببغداد. وكانت الفقيدة قد انسحبت عن الاضواء منذ ٢٠١٥ تزامنا مع وفاة زوجها الصحفي امير الحلو.

١٩٦٨ دخلت عالم التلفزيون بصفة مترجمة فكانت ترفد برنامج بمختلف الاخبار والتقارير حول الافلام والازياء وغيرها مما كان ينشر في كبريات الصحف العالمية.. بعدها قدمت برنامجها الشهير (سيرة وذكريات) الذي كانت تقدم فيه وتحاور المشاهير بفن ومقدرة ما اكسبه شهرة واسعة لدى العوائل العراقية.

تقول وهي لا تقر في لقاء اجري معها بالشرقية بان بطلتها نادية فارس العلي تمثلها.. هذه البطلة ظهرت بروايتها - فجر نهار وحشي - ١٩٨٤ التي تناولت فيها احداث الموصل في ٩٥٨ وما رافقها من اعمال عنف وفي هذه الرواية اربعة ابطال رئيسيون: (انا معلقة بين صحراء زكريا الجليدية وتيه ربيع وانا مشدودة بين نقطتين اصبحتا مركزا لحركتي.. كنت اعيش له، ادور حوله كزهرة عباد الشمس، كنت زهرة وكان هو الشمس).

وهي ترى بان ظروفا ما تدفع الانسان للعنف وقد لا يكون شريرا محترفا انما تلك الظروف قد توقظ فيه الوحش النائم داخله.

اختارت لروايتها الاشهر ٢٠٠١ اسم ميسوبوتاميا - بلاد ما بين النهرين - وتعني محالا لبيع التحف والانتيكات لانها توقعت الاحتلال لبغداد.

ومن مؤلفاتها:

ممر الى الليل ١٩٨٤

مطر اسود مطر احمر

مجموعة قصصية <البخور >١٩٩٩

الليل والبستان

كتب اخرى مترجمة.

ونحن نودع الكاتبة الالطف ابتسام عبد الله الدباغ.. نرفق دعوة لدراسة منجزها القصصي والروائي

إبتسام عبدالله

نعيم عبد مهلهل

١

تغادرنا اليوم ابتسام عبد الله والعراق رواية معها

وشاشة التلفزيون الابيض والاسود

وتسريحة شعرها الجميلة

وجه تلفازي وروائية من طراز الحالمات

كنا اطفالا ونشم في نبرة صوتها

الحنين الى الخواطر

وحين صافحتها لاول مرة بحياتي

كانت مثل وجه التلفزيون يضيء ابتسامة

٢

اخر مرة شربت القهوة معها في صحيفة المدى حيث تعمل

اهدتني روايتها الاخيرة

وشكرت علاء المفرجي لانه قدمني اليها

مازلت احتفظ برقة صوتها الذي يشبه رقة صوت نادية لطفي ولميعة عباس عمارة.

٣

الآن رحلت السيدة الروائية (ابتسام عبد الله)

البنت البغدادية الانيقة

وعلينا ان نتحفظ في كتابة الرثاء اليها

فهي تحب الفرح دائما

٤

رحلت ابتسام قبل عيد المرأة العراقية بيوم واحد

لتقول لنا:

أن ترحل في العيد

يعني أن نعشك مليئا بالسعادة.

الروائية ابتسام عبدالله: أتعايش مع شخصياتي بمودّة!

جاء في إحدى الدراسات المهمة التي تناولت نتاجات القاصة والروائية ابتسام عبدالله الآتي:
تعود أهمية المكان في فضاء الكتابة الأدبية بصورة عامة والكتابة الروائية بصورة خاصة إلى كونه معمارا" يضمن تماسك النص من حيث بنائه إلى جانب علاقته مع عناصر النص الأخرى (زمن، شخصية، رؤية..) فالمكان وإغناؤه و تأصيله، هو من المحاور الأساسية التي تدور حولها نظرية الأدب، إذ نراه في الآونة الأخيرة لم يعد مجرد خلفية تقع فيها الأحداث الدرامية و لم يعد معادلا كيانيا" للشخصية الروائية، بل أصبح ينظر إليه على أنه معمار رئيس تستنطق به و معه عناصر العمل القصصي، إذ غدا المكان في نصوص (الرواية الجديدة) قوة تحدِّد طبيعة و اتجاه النص الروائي.

و يبدو أن المكان أوسع من كونه حيزاً جغرافياً، فهو امتداد غير متناه ينطوي على الحيز و يوازي الفضاء سعة، و لذلك كان المكان، هو الموضوع الذي رغبنا في أن نكتب فيه و عنه، من خلال اختيار روايات القاصّة (ابتسام عبد الله).
أما سبب اختيارنا روايات (ابتسام عبد الله) للدراسة فذلك يعود لأسباب منها:
رغبة منا في دراسة الأدب النسوي العراقي القصصي و التعرف على إبداعات المرأة العراقية في هذا الجانب، الأسلوب الذي امتازت به الكاتبة (ابتسام عبد الله)، فهو أسلوب حي و واقعي ومعاصر للمألوف في حياتنا، و من يقرأ رواياتها يشعر بقربه من الواقع المسرود.
أما السبب الثالث فقد كان في مصطلح (التأنيث) الذي اختارته الباحثة عنواناً لبحثها، إذ تجد في هذه المفردة القريبة من الأنثى رونقاً خاصاً تحمله الأنثى، فلمسة النساء في الأشياء لها رائحة نفاذة لا يعرفها إلاّ من شعر بذوقها الرفيع، و تأنقها في تأنيث المكان، أينما حلّت و ارتحلت.

٢

السبب الأخير، هو في قابلية الكاتبة في ولوج تقانات أو أبنية سردية متعددة و متميزة مما يجعلها تقف في عتبة دخول الرواية العربية المتميزة بسردياتها، إذاً هذه الأسباب دفعتني لاختيار بحثي الذي حمل عنوان (تأنيث الأمكنة في روايات ابتسام عبدالله).

و من الدراسة الآنفة، أستطيع القول إن ابتسام عبدالله، تتدثر بالصمت في حرمة الإبداع المنزوي بعيداً" عن صخب الشهرة و التعارف، لا تسلم بأجواء العلاقات العامة، بقدر تواصلها مع الهم الإنساني، عنيدة في مقارعة الآراء المقابلة من دون تجريح، غزيرة في الإبداع الأدبي، رواية و قصة و ترجمة، تغوص في بحر الصحافة المتلاطم من دون التخلي عن نتاجها الإبداعي، و عند المفاضلة و الاختيار تقول، أنا كاتبة وحدت نفسها أولاً" في الصحافة، ثم الرواية، ثم القصة القصيرة، أنا مزيج من الصحافة و الرواية و القصة، هذا دون أن أتجاهل عملي الطويل في إعداد وتقديم البرامج التلفزيونية، قبل ابتسام عبد الله و ستجد أن البعض يفضل عملي في التلفزيون، و البعض الآخر في الصحافة، و فريق ثالث في الرواية و القصة، و أنا أجد في المرحلة الحالية الرواية الأقرب لي.
قبل ثلاثة عقود من الزمن كتبت عن رواية لها، و في أعقاب كتابتي هذه التقيت بها و قد دار نقاش قصير بيني و بينها عما كتبته و تناولته بعدما اعتقدت أن تناولي كان فيه بعض القسوة، بيد أني وضحت وجهة نظري في هذا الجانب، و قد تقبلت توضيحي و في نفس الوقت أصرت على اعتقادها، و ما أريد قوله في هذه الكتابة أن ابتسام عبدالله وجدتها بعد عودتي إلى الوطن من منفى امتد إلى ما يقارب الربع قرن، كاتبة أكثر عنفوانا" وغزارة في الكتابة الروائية و القصصية و الترجمة، إلى جانب عملها في الصحافة.
هذه الكاتبة في أعمالها القصصية و الروائية و حسبما التقطه النقاد، ذات سمات خاصة تشي بالمرأة داخلها، و تقدم الرجل على مائدتها برؤية أخرى، تنتمي إلى فن روائي راق، أكثر من انتمائها إلى الصراخ الذي تنتهجه بعض الكاتبات العربيات، بحثاً" عن دور يبدو أنه لم يولد بعد، انهمكت في الوسط الثقافي العربي على مدى أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، حفرت خلاله موضعها بصبر و أناة، و هي بالتالي امرأة و كاتبة من صنف متفرد في الإخلاص و الانتماء لذاتها أولاً"، فبرغم كل ما تعانيه كأديبة ما تزال تصر على البقاء في بغداد، فهي تكتب و تتواصل مع حركة الإنجاز الإبداعي بروح نبيلة و نقية.
و عندما تسألها عن حالة التأمل و الصمت التي تعيشها كأسلوب حياتي و ذاتي، و هل هذه الحالة تتمثل أو تتجسد في أعمالها؟

٣

تقول، من خلال الرواية أتأمل أعماق الإنسان و انفعالاته وأحاسيسه المختلفة، و أشعر في خلال فترة الكتابة بأنني أفعل شيئاً"، و أخلق على الورق شخصيات تبدو غريبة بالنسبة لي في بادئ الأمر، و لكنني بعد أسابيع و أشهر أتعرف على دقائق حياتها و أتعايش معها بمودة حتى أنتهي منها و أتخلى عنها تدريجيا".
ابتسام عبدالله تنأى عن المقارنات بين الجنسين و لا تحبذها، وكذلك عن شهرة الأسماء في التقييم و التقديم و إعطاء الأفضلية بقولها، لا أحب مقارنتي بأية كاتبة بل مع الأدباء من الجنسين، ففي المسابقات الأدبية مثلاً" لا يتم اختيار أفضل كتاب على أساس جنس الكاتب بل لأفضلية الكتاب.
كما أنها لا تميل إلى تصنيفات الأدب من على شاكلة أدب نسوي و أدب ذكوري عندما تشير إلى، أن هناك سمات خاصة لأدب المرأة فهي تختار موضوعات تدل عليها أحيانا"، لكن ذلك لايعني حصرها في تلك التسمية، ذلك ان القضايا الإنسانية واحدة ويمكن تناولها من قبل الرجل والمرأة معا"، كما يمكن للرجل الكتابة عن أحاسيس المرأة، يمكن للمرأة الكتابة عن الحرب أو العنف و ماشابه.
المرأة إنسان و ليس مجرد مخلوق جميل..، و أنا لا أحب النظر إلى المرأة من خلال مظهرها و جسدها بل أستنكر بشدة استخدامها كرمز للإيحاء الجسدي و أفضل صيانتها.
وفي أحاديثها و أجوبتها لهذا السائل أو ذاك تشكو الكاتبة جانب محن و مشاكل الأديب العراقي بالقول، مشكلة الرواية العراقية تتركز في إغلاق أبواب النشر و التوزيع أمامها، إذ ابتلي الكاتب العراقي خلال العقود القديمة بحروب و حصار و مازالت سدود وحواجز عالية تحول بينه و بين الانتشار عربيا" و عالميا" إذ لا يحصل على تأشيرة دخول الأقطار العربية بسهولة، بل انه شبه ممنوع من ذلك حتى و إن كان ينوي حضور مؤتمر ما مثلاً".
إن الحس الإبداعي يتوازى مع الحس الإنساني لدى هذه الكاتبة المبدعة و الأثيرة إلى نفوس من يعرفونها عن قرب أو كثب أو على تماس كانوا معها في يوم ما، و لها الكثير من المواقف الإنسانية و المبدئية، حتى أنها في إحدى وقفاتها المشهودة، كادت أن تعرّض حياتها للخطر، عندما دانت علنا" مشهدا" بربريا" في حقبة النظام السابق، و بهذا التطويع الإنساني الصارخ للمرأى الحي"، انتقلت من الهاجس المضموم، إلى الموقف الإبداعي المجسد و المنتفض مع الهم المعاش و المتداعي!.
و لهذا، ففي إحدى الندوات التي أقامتها (مؤسسة حوار العرب) في بيروت في العام ٢٠٠٦، بشأن النتاج الأدبي العراقي، تحدثت بإسهاب عن ابتسام عبدالله و عالية طالب، حتى اعتقد الحضور.

٤

أني قريب لهما، بيد أني نوّهت بأن قربي هذا (حسبما تتصورونه) مستمد من إبداعهما و إنسانيتهما، لأن الإبداع يخلقه الإنسان ، و بالتالي لا إبداع" من دون الإنسان!.
هذا جانب في مرآة الكاتبة ابتسام عبدالله التي تنوء بحمل الإبداع و بصبر المتأملة في شواطئ الروح، تأمل في هذا المدى المتسع في الغوص إلى الأعماق، تارة تطفو على سطح الأمل و التشبث، و تارة أخرى تغرق في استكشاف البواطن، ربما تصعد سريعا"، و ربما أيضا" تستكين في الانزواء، شوقا" إلى استيلاد خيال، يرفعها إلى الكتابة من جديد!
إذاً، ابتسام عبدالله، للعلم و التذكير، من جيل امتهن السياسة بشكل طاغ، حتى غدا نتاجه الأدبي منزويا" و متسترا" وراء هذا الامتهان أو المهنة، لكنها على عكس هذا الجيل تماثلت و لا أقول تعشقت مع منجزها في القصة و الرواية و التعريب و العمل الإعلامي، فكانت بحق أديبة من دون سياسة، أديبة و إنسانة، وهذا هو أوج الاقتران!، بل و المهم أنها تتواصل كشمعة تشتعل من ذوبانها!

الحوار نشر في صحيفة المدى ٢٠١١

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني
من خلال قراءة QR Code:

www.almadasupplements.com

Email: info@almadapaper.net

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

صاحبة البرنامج التلفزيوني الشهير (سيرة وذكريات)

د. إبراهيم خليل العلاف

في يوم ٧-٣-٢٠٢٣ توفت السيدة ابتسام عبد الله الكاتبة والاعلامية العراقية زوجة الاستاذ امير الحلو رحمهما الله، وكنت قد نشرت عنها مقالة في موقع (ميدل ايست اون لاين) الالكتروني بتاريخ ١٤-١١-٢٠١١ واعيد اليوم نشره ترحما عليها واستذكارا لها فهي واحدة من شهود الثقافة العراقية المعاصرة اقول:

من النساء العراقيات الرائدات، إنسانة فاضلة قبل أن تكون كاتبة، وقاصة، ومترجمة، ومقدمة برنامج متميز لاتزال تأثيراته قائمة على أجيال كاملة. إنها ابتسام عبدالله الدباغ لمن يريد أن نذكره ولدت في كركوك سنة ١٩٤٥، وتنقلت بحكم عمل والدها العسكري بين الموصل وكركوك، وتلقت دراستها الابتدائية والمتوسطة والإعدادية ثم دخلت "معهد المدرسين العالي "ببغداد – قسم اللغة الانكليزية، وتخرجت سنة ١٩٦٤. عينت في المؤسسة العامة للصحافة سنة ١٩٦٨ وتولت مسؤولية قسم المتابعة كما انتقلت للعمل في تلفزيون العراق وشغلت مناصب مهمة وتدرجت من مترجمة إلى رئيسة قسم الأخبار والترجمة.

ذكر مؤيد البدري في مقالة له انه عرف ابتسام عبدالله منذ سنة ١٩٦٤ عندما جاءت إلى التلفزيون وعينت بوظيفة مترجمة ومسؤولة عن قسم الأفلام، وكانت دؤوبة في عملها الذي يتطلب متابعة جادة وترجمة للأفلام الأجنبية التي تصل إلى التلفزيون وحلت محل "ايفن فينكس"، الذي كان مسؤولا عن هذا القسم قبلها.

وقدمت أول الأمر برنامجا بعنوان "نافذة على العالم" ثم تميزت ببرنامجها الأثير "سيرة وذكريات"، الذي كانت تستضيف فيه شخصية فكرية أو ثقافية أو فنية وتتحاور معه حول المحطات البارزة في حياته، ويستغرق البرنامج قرابة الساعة. وقد أثبتت أنها محاورة ممتازة إذ كانت على اطلاع بمجريات سيرة وحياة من تحاور.

وأتذكر أنني عملت في جريدة "الجمهورية" في بداية السبعينيات كاتبا بالقطعة، وكنت أراها كثيرا في غرفتها حيث عملت محررة ومترجمة في الجريدة أو في غرفة ماجد السامرائي مسؤول صفحة "آفاق" الشهيرة.

وابتسام عبدالله (ام خالد) زوجة الإعلامي العراقي المعروف أمير الحلو. وفي سنة ١٩٦٩ أصبحت محررة ومترجمة في مجلة "ألف باء" الأسبوعية ثم استقرت وحتى سنة ٢٠٠٣ محررة ومترجمة في جريدة "الجمهورية".

أصدرت ابتسام عبد الله في سنة ١٩٨٤ قصة وثقت فيها أحداث الموصل سنة ١٩٥٩ والتي وقعت اثر فشل الحركة المسلحة التي قادها العقيد الركن عبدالوهاب الشواف ضد نظام حكم الزعيم الركن عبدالكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة العراقية آنذاك، وكانت قصة مهمة عنوانها "فجر نهار وحشي"، وقد لاقت ردود فعل متباينة في حينه إلا أنني – كمؤرخ – أعدها من الروايات التاريخية التي وثقت صفحة مهمة من تاريخ الموصل الحديث والمعاصر. وفي سنة ١٩٨٦ أصدرت رواية بعنوان "ممر الى الليل".

ولابتسام عبدالله كم كبير من المقالات التي نشرتها في الصحف والمجلات العراقية والعربية. كما برعت في الترجمة ومن كتبها المترجمة "يوميات المقاومة في اليونان" والذي ترجمته بالتعاون مع أمل الشرقي. كما ترجمت كتاب إنجيل ديفز الموسوم "سيرة ذاتية" وكذلك ترجمت كتاب "في انتظار البرابرة" لمؤلفه ج. م. كوتزي.

وتعد ابتسام عبدالله من أبرز وأقدم أعضاء الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، وهي عضو في الهيئة الإدارية لنقابة الصحفيين العراقيين ولثلاث دورات متتالية امتدت من سنة ١٩٨٤ وحتى ١٩٩٠. وقد نقل عنها حميد المطبعي في "موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين" قولها عن فلسفتها في الحياة إنها تحرص في حياتها على أن "تحول الذعر في لحظات إلى طمأنينة"، ولها رأي مشهور وهو ان الرجل لا يبدو دائما أكثر ذكاء من المرأة لأنه ومنذ البدء احكم الحصار حولها وجلس مستريحا.

يقول مؤيد البدري رحمه الله عنها: "إنها تتسم بالذكاء والرقة وحسن التعامل مع الجميع فلم تكدر أحداً طوال عملها في التلفزيون، بل على العكس من ذلك كانت تمد يد العون للجميع لذلك نالت احترامهم وتقديرهم". كما كانت دائمة الابتسامة".

×المقال منشور في موقع ميدل ايست اونلاين بتاريخ ١٤-١١-٢٠١١

شهادات

رحيل إبتسام عبد الله خسارة مضاعفة

أحمد عبد الحسين

برحيل ابتسـام عبد الله أمس، يغيب ملمح كبير منٍ ملامح ثقافـة العـراق الأنيقة المعافـاة التي شُوّهتْ لاحقـاً على يد الديكتاتوريـة والعسكرتاريـا ثم بلغت القـاع زمن التفاهة الإلكترونية والابتذال المتسارع.

أطلّتْ على جمهور السبعينيات ببرنامج "سيرة وذكريات" والتقـتْ مـن خلاله رمـوز الثقافـة العراقيـة، ولـلآن أذكر الحلقـة التي استضافتْ فيها الراحل عليٍّ الورديّ، كم كانتْ محـاورة ذكيـة لمّاحة وعميقـة، وكان يجلّل وجههـا الهدوءِ الـذي يجبرٍ مـن يكـون قبالتها علـى أن يكون مثلهـا هادئاً مبتسما.

أقـارن تلك الإطلالـة المحفورة في ذاكرتـي عميقاً بالبرامج الحواريـة التي تُصاغ اليوم حيـث المحاور الناجح هو من يستفز ضيفه والمشاهدين، والنقاش الذي يجلب مشاهدات هو الذي تتطاير فيه التهم وقلّة اللياقة والزعيق على طاولة لا يسمع فيها أحد أحداً.

الراحلـة قاصّـةٍ وروائية ولها عـدّة كتـب في السرد، وهي مترجمـة أيضـاً، وكانـت ترجمتهـا لروايـة كويتـزي "في انتظار البرابرة" في غاية العذوبة.

عملهـا في الصحافـة الثقافيـة كان مميـزاً أوصلهـا إلى أن تترأس تحرير أبرز المجـلات الثقافية آنذاك "مجلة الثقافة الأجنبية".

منذ سنـة تخرجهـا في ١٩٦٤ عملتْ في تلفزيـون العراق، مترجمـة للأفلام أولاً ثـمّ معدّة ومقدمـة لبرنامجها الأشهر "سـيرة وذكريات"، لكـنّ وقتها اللاحـق سيكرّس بمعظمه للصحافة المقـروءة، حيث عملتْ في أبرز الصحف المحلية، ولم تتوقـف عن العمـل الصحفي إلا قبل سنـوات عدّة بعد وفاة زوجها الكاتب أمير الحلو.

في كتابـه "أعـلام العراق في القرن العشريـن" كتب حميد المطبعـيّ عن ابتسام هذه الجملة الموحيـة "إنها قادرة على تحويـل لحظات الذعـر إلى طمأنينة". وكـم كان على حقّ، ففـي شخصهـا وملامـح وجههـا ونـبرة صوتها مـا ينشر السكينة في المحيط الذي تكون فيه.

الحـوار المتّزن ومثلـه الأناقة فيٍ القول والفعـل، أصبحتْ عملات نادرةَ، وحين نخسر رمزاً من رموز تلك الثقافة التي صارت غريبة على أجيالنا الجديدة، فإنّ الخسران كبير.

تعلمت من إبتسام عبد الله

محمد حياوي

بهذه الغرة الشهـيرة والنظرة الغارقة بالكحل والرأفة والثقـة والغموض، كانـت إبتسام عبد اللـه تطل على العـراق مساء كل خميس، بما فيه أنا، فأجلس متسمرًا أمـام شاشة التلفزيون ساعة كاملة، متأملا تلك السيِّدة القوية والحيية في آن، قبل أن تجري السنين وتمضي الطفولة راكضـة، لأجد نفسي في طابق واحد معها في جريـدة الجمهوريـة. حتـى أنّني ذات مـرّة طلبت منها أن ألمسهـا، لأتأكد من أنّها حقيقيـة. وبعد الاعتياد على طلّتهـا وحضورها الباذخ في مكتبهـا، تبنتني، من بين آخريـن، (موهوبين كما كانت تعتقـد). كانت كلما تقرأ لي نصًـا يُنشـر في الجريدة تـردد لازمتهـا (لك ولي.. ليشـ أنته تعـرف تكتب)، لكن عندمـا يسألها الآخرون عـن النص تومض عيناها وتقول (يجنن). نعم ابتسام أنقذتني مرة من الموت. عندما رفضتُ وضع أسمي على .كتـاب موجـز التاريخ الإنساني لصـدام حسين. الذي طلب مني رئيس التحـرير وقتها تحريره، ففعلت. ومرة أخرى عندما كتب عني زميل (عزيز) أثناء انتدابي إلى جريـدة القادسيـة، يتهمني بانتقـاد (السيِّـد الرئيس) ووصمـه بالغباء، في أعقـاب غزو الكويـت، فتدخلت. ابتسام. لدى زوجهـا الراحل أمير الحلو، وكان رئيسًا للتحرير، الذي تدخل بـدوره لدى عبد الجبار محسن، لـ (يطمطمو) التقريـر ويجبرونني على التطوع للعمل في الإذاعـة تحـت القصف (كـي أغسل عـاري وأحسّن صورتـي). وحـدث أن نجـوت. ليثقـلا كاهلـي. امـير وابتسـام. بفضلهمـا، لقـد تعلمت من إبتسـام الأتكيت واللبس والتنسيق والكتابة والقراءة، لاسيّما القراءة. كانت رقيقة بفخامة، ومؤثـرة بحنو. تشعر بوجودها في مبنى الجريدة، حتى من خلف الجدران. عذبة ناعمة ذكية وحيية، تقابل قفشات زميلنا الراحل رياض قاسم وزعيقـه بابتسامتهـا. والكلمات المجرحـة والمتجنية، بتجاهـل وترفع. كانت تبتسم وتعـزو الأمر إلى الخلل المعرفي كمـا تسميه. إبتسام عبد اللـه انطبعت، ككيان متحضـر، في ذاكـرة أجيال كاملـة، وستبقـى كذلك ما دامـت تلـك الأجيال تتناسـخ في العـراق. عزائي أنّني التقيتهـا آخر مـرّة أثنـاء زيارتي الأخـيرة إلى بغداد. وحتـى اوان زيارتي المقبلة، سأغمضـ عينيّ بسكون، وأتخيـل العـراق الجميـل، دائمًـا، مسـاء كل خميس، عندمـا تنتهـي اللازمـة الموسيقيـة وتطلّ مـن الشاشة الفضية، بتلك الغرة والنظرة الغارقة بالكحل والذكاء، لتمنح العراق هويّته المعرفية والجمالبة المتحضرة.

رياض النعماني

(هل ماتت المبدعة ابتسام عبداللة)؟

الحلم عندما يشف ويشف ليرى...

الضوء عندما يولد في فجر بساتين المشمش،

قرب الهديل لحظة يرق ويترقرق

في زرقـة بنفسـج تولـد في حليـب قبرتـين يصغيـان وراء المـدى للبعيـد الذي يجـاور بهاء الصمـت والأله والأبـد...... مرايـا الاعراس حينما تتبـادل مع المطر فـرح طيران العشـاق في اغنية العشـق و اللانهاية كل ذلك هو ابتسام عبد الله.

الصلاة هي ابتسام عبد الله

القصيدة التي تتبادل مع المستحيل جماليات الحضور الباذخة هي ابتسام عبد الله.

العذوبـة... والهـدأة.. رقـة الهمسـ... البرتقـالي الـذي تمحـوه ترافة اعـالي الغروب لفـرط نعومته... والصـوت الـذي لا يسمـع هـم ابتسـام عبد اللـه التي فارقت موت حياتنا لتدخل في حياة الابدية.

كم خسرنا برحيلها النهائي هذا!!!

اين سيذهب الحلم بعد الان؟

هكـذا اراك ـــ في الحق ـــ قد نجوت من موت واقعنا المرير والمخيب الفاجع.

لك كل ما بالحنين من نايات وحنين

لم ترحل بل اختارت الغياب الهاديء

لطفية الدليمي

لاعلن حـزني عادة – الـوذ بالصمت طويـلا فالكلمات غالبـا لاتفي بما يعتمـل في القلب والروح من ألم وكدر كبير.

. غيـاب – ولاأقول رحيل – الكاتبة والاعلامية الجميلة السيـدة ابتسـام عبدالله ملأني حزنـا وأسفا، فهي من السيدات النـوادر اللواتي التقيتهن في مناسبات قليلة –واكتشفـت عذوبة روحهـا ورقتها ورقـيّ تعاملها، لم اسمـع منها سوى ماهـو خيّر وجميل مـن القول بحق الآخريـن، وهي فضلا عـن سماحـة شخصيتها تعكس حضـورا انسانيـا وانثويـا أنيقـا وأموميـا يشـع من ابتسامتهـا وصوتها الـدافيء وحرصهـا على احترام نفسهـا ومن حولها، وكانت فريـدة في ادائها الاعلامي وفي قدرتها على ادارة الحوار الراقي مع ضيوفها.

لم يتـح لنـا الزمن ان نلتقـي كثيرا، لكن المـرات القليلة التي التقينـا فيها كانت تعادل عمرا مـن الالفة والمحبة والاحترام الذي دام بيننا رغم المسافات.

ابتسـام لم ترحـل بـل اختارت الغيـاب الهـاديء – أي الانتقـال من حالة الى أخرى و مضـت محفوفة بأنوار المحبة والسلام.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون